على حِيْن عَاتَبْتُ المَشِيْب

[من الطويل]

قَدِم منظور وزبان ابنا سيّار بن عمرو الفزاري إلى النعمان في الوقت الذي كان فيه غاضباً على النَّابِغَة. فضرب لهما قبّة لتكريمهما مع قبّته، والنَّابِغَة يلازمهما سراً في كل أمر إلى أن دسّ ذات يوم أبياتاً من الشعر من قصيدته: «أمِن آل ميّة...» إلى قينة للنعمان لكي تُغنِّيها، فلمّا سمع النعمان تلك الأبيات، قال: هذا شعر علوي،(١) هذا شعر النَّابِغَة، فقبل عذره وعفا عنه. وبعدها راح النَّابِغَة يمدح النعمان ويعتذر إليه ويهجو الأقارع وهم بنو قريع بن عوف، الذين وشوا به وخاصة مرّة بن ربيع بن قريع:

عفا ذو حُسا مِنْ فَرْتَنى، فالفوارعُ
فجَنْبَا أريكٍ، فالتِّلاعُ الدَّوافِعُ(٢)
فمُجتَمَعُ الأشراجِ غَيّرَ رَسْمَها
مصايفُ مَرّتْ، بَعدَنا، ومَرابعُ(٣)

---

(١) هذا شعر علوي: أي أن قائل هذا الشعر من عالية نجد.

(٢) عفا: دَرَس وأمّحى. ذو حُساً: اسم موضع في بلاد مُرّة. فَرْتَنى: اسم امرأة. الفوارع: اسم موضع. أريك: اسم موضع. التِّلاع: مفردها تلعة، وهي ما علا من الأرض، أو ما انهبط منها (ضدّ). الدوافع: أي التي تدفع إلى أسفل.

(٣) الأشراج: مفردها شَرْج، وهو مسيل الماء من الحَرَّة إلى السهل. المصايف: مفردها مصيف، أي من الصيف. المرابع: مفردها مَرْبع، أي=

تـوَهّـمْـتُ آيـاتٍ لـهـا، فَـعَـرَفْـتُـهـا
لِـسِـتّـةِ أعْـوامٍ، وذا الـعـامُ سـابِـعُ[١]
رَمـادٌ كـكُـحْـلِ الـعـيـنِ لأيـاً أُبَـيِّـنُـهُ
ونُـؤيٌ كـجَـذْمِ الـحَـوْضِ أثـلـمُ خـاشـعُ[٢]
كـأنّ مَـجَـرّ الـرّامِـسـاتِ ذُيُـولَـهـا
عـلـيـه، حَـصِـيـرٌ، نَـمّـقَـتْـهُ الـصّـوانـعُ[٣]
عـلـى ظَـهْـرِ مِـبْـنَـاةٍ جَـديـدٍ سُـيُـورُهـا
يَـطـوفُ بـهـا، وسْـطَ الـلّـطـيـمـةِ، بـائِـعُ[٤]
فـكَـفْـكَـفْـتُ مـنـي عَـبْـرَةً، فـرَدَدْتُـهـا
عـلـى الـنّـحـرِ، مـنـهـا مُـسـتَـهِـلٌّ ودامِـعُ[٥]

= من الربيع. ومعنى البيت، أن هذه الآثار قد دَرَست بمرور الزمن من صيف وربيع.

(١) المعنى، أن الشاعر قد غاب عن هذه المواضع مدة سبع سنوات ولم يتبين آثارها إلّا بعد توهّم لدروس هذه الآثار ومعالمها.

(٢) اللأي: المشقة والتعب. أُبينه: أي أتبيّنه. النؤي: ما يحفر حول الخيمة لردّ الماء وغيره عنها. الجذم: الأصل. أثلم: منكسر. خاشع: بمعنى ملاصق ومنبسط مع الأرض.

(٣) الرامسات: الرياح الشديدات الهبوب التي تدفن وتمحي أثر كل شيء. ذيولها: أي ذيول الرامسات أو الرياح، وهو ما تتركه على الرّمال كأنه أثر ذيل جرّته. نَمّقت: زيّنت. الصوانع: بمعنى الأيادي الصانعة.

(٤) المبناة: ما يبسط عليه التاجر بضاعته من بساط أو حصير. السيور: مفردها سَيْر، وهو قَدَّة من الجلد مستطيلة. اللّطيمة: سوق العَطّارين.

(٥) كفكف: مسح. العَبرة: الدمعة. الدمع المستهلّ: أي المنصبّ. والدامع: أي الذي يساعد الدمعة في الخروج من العين.

على حين عاتَبتُ المَشيبَ على الصِّبا
وقلتُ: ألَمّا أصْحُ والشّيبُ وازعُ؟(١)
وقد حالَ هَمٌّ، دونَ ذلكَ، شاغلٌ
مكان الشّغافِ، تَبْتَغيهِ الأصابِعُ(٢)
وعيدُ أبي قابوسَ، في غيرِ كُنهِهِ
أتاني، ودوني راكسٌ، فالضّواجِعُ(٣)
فَبِتُّ كأنّي ساوَرَتْني ضَئيلَةٌ
من الرُّقْشِ، في أنيابِها السُّمُّ ناقِعُ(٤)
يُسَهَّدُ، من لَيلِ التّمامِ، سَليمُها
لِحَلْيِ النّساءِ، في يديهِ، قعاقِعُ(٥)
تناذرَها الرّاقُونَ مِنْ سُوءِ سُمّها
تُطَلّقُهُ طَوراً، وطَوراً تُراجِعُ(٦)

(١) صحا: أفاق. الوازع: الزاجر. (٢) الشِّغاف: حجاب القلب.
(٣) كُنْهه: حقيقته. راكس: اسم وادي. الضواجع: بمعنى انحناءات الوادي التي تضطجع مع الأرض.
(٤) ساوره: واثبه، وهي بمعنى وثب عليه، يقال: ساورت الحيّة الراكب، أي وثبت عليه. ضئيلة من الرّقش: أي حيّة ضعيفة أو رقيقة. السّم النّاقع: أي الثابت في أنياب الحية، أو القاتل.
(٥) يُسَهَّد: يُمنع من النوم. ليل التمام: بمعنى الليل الطويل. السليم: هنا بمعنى الملدوغ أو المشرف على الهلاك وقد سمّوه به تفاؤلاً بالسلامة. القعاقع: مفردها قعْقَعة وهي الصوت المتتابع في شدّة. ومعناه، أنهم كانوا يضعون الحلي كالخلاخل ونحو ذلك في يد الملدوغ ويحركونها كي لا ينام من أصواتها فيدب فيه السّم.
(٦) تناذر: أي أنذر بعضهم بعضاً. والمعنى، أن من خبثها لا تستجيب للرّاقين إلّا مرة بعد مرة أي تطلّقه مرة وتراجعه أخرى.

أتـانـي، أبَـيْـتَ الـلّـعْـنَ، أنّـكَ لُـمـتَـنـي
وتِـلـكَ الـتـي تَـسْـتَـكّ مـنـهـا الـمَـسـامِـعُ[١]
مَـقـالَـةُ أنْ قـد قـلـتَ: سـوفَ أنـالُـهُ
وذلـك، مـن تِـلـقـاءِ مِـثْـلِـكَ، رائِـعُ[٢]
لَـعَـمْـري، ومـا عُـمـري عـلـيّ بـهَـيّـنٍ
لـقـد نَـطَـقَـتْ بُـطْـلاً عـلـيّ الأقـارِعُ[٣]
أَقـارِعُ عَـوْفٍ، لا أُحـاوِلُ غـيـرَهـا
وُجُـوهُ قُـرُودٍ، تَـبـتَـغـي مَـنْ تـجـادِعُ[٤]
أتـاكَ امـرُؤٌ مُـسْـتَـبْـطِـنٌ لـيَ بِـغْـضَـةً
لـه مـن عَـدُوٍّ، مـثـل ذلـك، شـافِـعُ[٥]
أتـاكَ بـقَـوْلٍ هَـلْـهَـلِ الـنّـسـجِ، كـاذبٍ
ولـم يـأتِ بـالـحَـقّ، الـذي هـو نـاصِـعُ[٦]
أتـاكَ بـقَـوْلٍ لـم أكُـنْ لأقُـولَـهُ
ولـو كُـبِـلَـتْ فـي سـاعِـدَيّ الـجَـوامِـعُ[٧]

(١) المعنى، أن ملامة جاءتني أو بلغتني عنك تمنيت الصم كي لا أسمعها. تَسْتكّ: تضيق، أو تصمّ منها المسامع.
(٢) الرائع: من الروع، أي المفزع.
(٣) البُطل: بمعنى الكذب. الأقارع: هم بنو قريع بن عوف الذين وشوا به إلى النعمان.
(٤) تُجادع: تُخاصم أو تُعادي.
(٥) البِغْضة: بمعنى البغض الشديد.
(٦) هَلْهَل النسج: أي ضعيف الحبكة. الناصع: البيّن الساطع.
(٧) كُبِلتْ: وضعَتْ. الجوامع: الأغلال.

حَـلَـفْـتُ، فـلـم أتـرُكْ لـنَـفـسِـكَ رِيـبـةً
وهـلْ يـأثـمَـنْ ذو أُمّـةٍ، وهـوَ طـائِـعُ؟[١]
بـمُـصْـطَـحِـبـاتٍ مِـنْ لَـصـافٍ وثَـبْـرَةٍ
يَـزُرْنَ إلالاً، سَـيْـرُهُـنّ الـتّـدافُـعُ[٢]
سَـمـاماً تُـبـاري الـرّيـحَ، خُـوصـاً عُـيـونُـهـا
لَـهُـنّ رَذايـا، بـالـطّـريـقِ، ودائِـعُ[٣]
عـلـيـهِـنّ شُـعْـثٌ عـامِـدونَ لَـحـجّـهِـمْ
فـهُـنّ، كـأطـرافِ الـحَـنـيِّ، خَـواضِـعُ[٤]
لـكَـلّـفْـتَـنـي ذنْـبَ امـرئٍ، وتـرَكْـتَـه
كـذي الـعُـرّ يُـكـوَى غـيـرُهُ، وهـو راتـعُ[٥]
فـإنْ كـنـتُ، لا ذو الـضِّـغـنِ عـنـي مـكـذَّبٌ
ولا حَـلـفِـي عـلـى الـبـراءَةِ نـافِـعُ
ولا أنـا مـأمُـونٌ بـشـيءٍ أقُـولُـهُ
وأنـتَ بـأمْـرٍ، لا مَـحـالَـةَ، واقِـعُ

(١) الرِّيبة: الشك والظن. ذو أُمّة: أي ذو دِيْن.
(٢) لَصاف وثَبْرة: إسما موضعين. إلال: اسم موضع في جبل عرفات. التدافع: أي الإندفاع بعجلة نحو بعضهم البعض.
(٣) السَّمام: طائر صغير شديد الطيران كالخطّاف. خوصاً عيونها: أي غائرات. الرذايا: مفردها رذيّة، أي الضعيفة المهزولة من النوق. الودائع: أي النوق التي سقطت فاستودعت الطريق.
(٤) شعث: مفردها أشعث، وهو المُغْبَرّ الشّعر من السفر. الحَنيّ: القِسيّ. الخواضع: أي التي تطامنت رؤوسها إلى الأرض من شدة الانحناء.
(٥) العُرّ: الجرب. والمعنى، أنك كلّفتني ذنب غيري، فتركته كما يُكوى الجمل السليم ويُترك الأجرب.

فـإنّـكَ كـالـلّـيـلِ الـذي هـو مُـدْرِكـي
وإنْ خِـلْـتُ أنّ الـمُـنـتَـأى عـنـك واسِـعُ

خَـطـاطـيـفُ حُـجْـنٌ فـي حِـبـالٍ مَـتـيـنـةٍ
تَـمُـدّ بـهـا أيْـدٍ إلـيـكَ نَـوازِعُ[١]

أتُـوعِـدُ عَـبـداً لـم يَـخُـنْـكَ أمـانَـةً
وتـتـرُكُ عَـبـداً ظـالِـمـاً، وهـوَ ظـالِـعُ؟[٢]

وأنـتَ ربـيـعٌ يُـنـعِـشُ الـنّـاسَ سَـيـبُـهُ
وسـيـفٌ، أُعِـيـرَتْـهُ الـمـنـيّـةُ، قـاطِـعُ[٣]

أبَـى الـلّـهُ إلّا عَـدْلَـهُ وَوَفـاءَهُ
فـلا الـنّـكـرُ مَـعـروفٌ ولا الـعُـرْفُ ضـائـعُ

وتُـسـقـى، إذا مـا شـئـتَ، غـيـرَ مُـصَـرَّدٍ
بـزَوراءَ، فـي حـافـاتِـهـا الـمِـسـكُ كـانِـعُ[٤]

---

(١) خطاطيف: مفردها خُطَّاف، وهي حديدة حجناء يُختطف بها. حُجْن: معوجّة. نوازع: جواذب. والمعنى، أني في ضيق شديد مما أنا فيه، وكأنني في قعر بئر أمدّ إليك يَدِي بالخطاطيف لتخلِّصني، فيدي تنزع إليك وليس إلى غيرك.

(٢) الظالع: الظالم الجائر.

(٣) السَّيْب: المطر الجاري.

(٤) المصرّد: من التصريد أي الشرب دون الإرتواء. الزوراء: دار للنعمان في الحيرة من أرض العراق. كانع: يقال كنع المسك بالثوب، أي لزق به وتعلّق.